إنجيل يوحنا: رحلة الإيمان

الماء الحي

(٤: ١-٤٢)

تأليف: بروس مكلارتي

تذهلني أشياء كثيرة في حياتها! هل يا ترى كانت مقبولة بين اهلها وجيرانها؟ أم كانت من يجتبها الناس الطيبون؟ هل كان والديها يحسنان معاملتها في السنوات الأولى من عمرها؟ اي نوع من الرجال كان زوجها الأول؟ هل كان عدد المرات (خمس) التي تزوجت بها يعتبر رقما قياسيا في مدينة سوخار، اي حيث كانت تسكن؟ كيف كانت اخلاقها في اليوم الذي التقت فيه مع يسوع عند البئر؟ هل كانت متعالية الروح، والعينين، أم جاءت في ذلك اليوم مكسورة الجناح وروح منسحقة؟

هناك حقائق كثيرة عن المرأة السامرية لن نعرفها أبداً، ولا اود أن أدخل في تفاصيل حياتها. ومع ذلك، فان قصتها هي إحدى القصص الأكثر إثارة للاهتمام في الأناجيل كلها حيث يلتقي يسوع بنفس ضالة. ذهبت في إحدى الأيام إلى البئر لتأخذ ماء فصارت رمزاً لجميع الناس الذين يريدون ان يرتفعوا فوق مع انه توجد قوى تحاول جذبهم الى اسفل. هذه القصة تسمى بقصة «المرأة السامرية»، كما أن قصة «الابن الضال»، نتيجة للسلوك الذي يقود الإنسان إلى هذه الحالة. هاتان القصتان هما بالحقيقة قصتين عن الله. الله الذي يرحب بأولاده عندما يرجعون إليه لكي يستمتعون بفيض محبته التي يصبغها الله على أكثر الناس بغضاً. قصة «المرأة السامرية» هي أيضاً درس في الإيمان، واللقاء الذي تم بين يسوع وهذه المرأة استعمل من قبل يوحنا لايصال ثلاثة حقائق هامة عن الإيمان الذي كان الناس يدعون إليه في إنجيل يوحنا.

الإيمان هو فوق كل الظروف

كان الوقت حوالي منتصف النهار عندما وقف يسوع وتلاميذه عند بئر يعقوب في طريقهم عندما كانوا عائدين من اليهودية إلى الجليل. كان هذا في الموقع القديم بالقرب من مدينة سوخار السامرية. وقفوا لكي يستريحوا، إذ كانوا يعرفون بانهم يستطيعون ان يشتروا طعاماً من هناك. ولأن يسوع كان قد تعب من السفر، جلس عند البئر بينما ذهب التلاميذ ليشتروا ما يأكلونه. وفيما كان يسوع هناك وحده، جاءت امرأة سامرية لتأخذ ماء. قد يحدث هذا بالعادة ان تأخذ المرأة الماء من النبع وترجع إلى المدينة دون أن تبالي بيهودي منهكاً جالساً هناك. ولكن في هذه المناسبة، حدث شيء عجيب للمرأة؛ تكلم إليها اليهودي! كل ما فعل هو انه طلب منها ليشرب، ولكن هذا الطلب البسيط أصابها بصدمة، فسألته: «كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية؟» (٤: ٩). هكذا بدأحديث تغيير الحياة بين يسوع وهذه المرأة من المدينة المجاورة.

يحدثها في الدقائق القليلة القادمة عن أعمق احتياجاتها، وأكبر أحزانها، وهويته انه المسيا! وفي النهاية، لم تؤمن هي بيسوع فحسب، ولكن أمن كثيرون أيضاً من مدينتها. ما يجعل هذا صعب التصديق هو ان هذه المرأة ربما كانت من وجهة النظر البشرية، أحقر مخلوق في العالم كله ليتحدث لها يسوع عن

الإنجيل. الحقيقة هي ان يسوع أعلن بجراءة ان الإيمان لا يرتبط بظروف الشخص. ولو كان كذلك لما صارت تلك المرأة مؤمنة، لأن كانت هناك ثلاثة أشياء على الأقل ضدها في ذلك اليوم.

الشيء الأول: انها كانت سامرية

يعود تاريخ العداوة بين اليهود والسامريين إلى حوالي سبع مائة عام إلى زمن سبي إسرائيل. كثير من الذين بقوا على الأرض تزاوجوا مع أجناس اخرى، وفقدوا بذلك هويتهم الروحية والثقافية كأبناء إسرائيل.

عندما رجع اليهود البابليون إلى أورشليم ليبنوا الهيكل، لم يعد لهم أي صلة مع من بقوا في الارض.[1]

بينما لا يرتبط الإيمان بالظروف، يكون ذات أهمية قصوى ان نربط إيماننا بخُلقنا.

وبمرور الزمن، بنى السامريون المنبوذين هيكلاً لهم على جبل جرزيم، وكان هذا جبل بركة في العهد القديم.[2] فقدت الثقة بين هاتين المجموعتين، وفي سنة ١٢٨ ق م احرقت جماعة من اليهود هيكل السامريين. لا عجب من وقوع هذا الحدث المؤسف، بسبب إزدراء معلمو اليهود بالسامريين. يقول المشنا[3] بان بنات السامريين نجسات، أي بعبارة أخرى كان تعتبر السامريات نجسات في طبيعتهن! ويشمل المشنا أيضاً على قول إليعازر معلم اليهود: «من يأكل خبز السامريين مثله مثل من يأكل لحم الخنزير». ربما يكون المقصود بالعبارة القائلة ان «اليهود لا يتعاملون مع السامريين» هو ان «اليهود لا يشاركون السامريين بالاواني او الادوات». بهذه الخلفية كلها، يكون من العجب ان يتكلم يسوع مع المرأة السامرية. ولا يُصدق انه طلب ان يشرب من الدلو الذي كانت تحمله، بل ولا يصدق أيضاً بانه جعل ماء الله الحي متاح لها!

الشيء الثاني: انها كانت امرأة:

عندما رجع التلاميذ من المدينة حيث ذهبوا ليشتروا الطعام، «كانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة» (٤: ٢٧). لم يتعجبوا بسبب هذه المرأة بالذات؛ بل ذهلوا لأنه كان يتكلم مع امراءة! كما كان التلاميذ يكرهون ان يرجعوا ويجدوا يسوع جالساً مع سامري، لم يتخيلوا أبداً بانهم يرجعون ويجدونه يتكلم مع امرأة سامرية.

مرة أخرى، كانت تعاليم معلمو اليهود ضد المرأة السامرية. يقتبس تلمود[4] اليهود من معلم يهودي كان يشجع مستمعيه ان لا يتكلموا كثيراً مع النساء حتى ولو كانت زوجة الشخص نفسها! كان بعض معلمو الناموس ينظرون إلى النساء بانهن أدنى درجة، وكانت هناك صلاة قديمة تقال: «مباركاً أنت يارب، الذي لم تجعلني امرأة». كونها أنثى ذلك كان شيء آخر ضدها.

الشيء الثالث: كانت خلفيتها سيئة

خلال حديثهما، اشار يسوع إلى انه كان يعرف الخلفية المؤلمة للمرأة السامرية. كانت قد تزوجت خمس مرات، وتعيش في الوقت

---

[1] عزرا ٤: ٢-٥.

[2] تثنية ١١: ٢٩.

[3] المشنا: جزء من تلمود اليهود، وهو الصورة المكتوبة من القوانين والتعاليم التقليدية الشفهية عند اليهود. يقول التقليد اليهودي بان أصله يرجع إلى زمان موسى (سنة ١٢٠٠ ق م). وتم حفظه عن ظهر قلب لكي يُسلم من جيل إلى جيل. وقد تم تدوينه في ما بين ٧٠م إلى ٢٠٠م.

[4] التلمود هو مجموعة كتابات من قوانين اليهود الدينية والمدنية. ويتكون من قسمين: المشنا، ويتألف من قوانين اليهود التقليدية الشفهية. وغمارا. وهو نشرات من تقارير رجال الدين ومناقشات تتعلق بتلك القوانين.

الحالي مع رجل ليس زوجها (٤: ١٨). علينا ان نتخيل نوع الصراع والرفض وعدم الآمان والعار والحزن الذي عرفته في علاقاتها الفاشلة. ربما كانت قد يأست من الزواج عندما جاءت إلى البئر.

لديّ عدد من الاصدقاء المسيحيين الذين مروا بمأساة بالطلاق. لم يرغب أي منهم في الطلاق، وصارع معظمهم لانقاذ زواجهم الفاشل دون جدوى. تحمل كل منهم ألم التمزق عندما ينقسم «جسد واحد» إلى اثنين فجأة مرة أخرى، واختبر جميعهم وصمة العار التي يجلبها الطلاق، حتى في العقد الحالي. قد وجدت أن معظم المطلقين من إخوتي وأخواتي في المسيح يكرهون الطلاق أشدة كراهية له من غير المطلقين. انهم يعرفون يقيناً لماذا يكره الرب الطلاق (ملاخي ٢: ١٦)، لأنهم اختبروا الخراب الذي يجلبه في حياتهم. وما زال آخرون يحملون علامات الطلاق الباقية بعد عدة سنوات. تخيل الآثار الباقية التي خلفه هذه الطلاقات الخمسة عليها![٥]

ثلاثة أشياء ضدها! هل كان يمكن ليسوع ان يذهب في أي مكان آخر ويجد مرشح غير محتمل للإيمان أكثر من هذه؟ لو جاءت إلى البئر كامرأة فاضلة من السامرة لكان ذلك صعباً. ماضيها المؤلم وحاضرها الدنييء جعلا من المذهل أن يختارها يسوع لتقبل الإنجيل.

اللقاء بين يسوع والمرأة السامرية بصفة عامة يعلن بطريقة قوية بان الإيمان غير مرتبط بظروف الشخص. في نظر الله لا يكون لون الشخص والجنس وماضيه أي اعتبار. الحديث عند البئر يعبر عن هذا بطريقة أفضل مما قد تعبر عنه أية موعظة على الاطلاق!

للإيمان صلة بالخُلق

في نقطة حاسمة في حديثه مع المرأة، طلب منها يسوع ان تذهب وتأتي بزوجها. عندما قالت بان لا زوج لها، قال يسوع: «حسناً قلت ليس لي زوج. لأنه كان لك خمسة أزواج والذي لك الآن ليس هو زوجك. هذا قلت بالصدق» (٤: ١٧ و١٨). يبدو أولاً كانه تقاطُع في حديث روحي عميق. لماذا انتقل يسوع سريعاً من الحديث عن «الماء الحي» ليطلب منها أن تأتي بزوجها؟ تشير استجابة المرأة ورد فعل يسوع لتلك الاستجابة إلى ان يسوع قد غيّر الموضوع لكي يتأكد تماماً بانها أتت بكل حياتها إلى الرب، وليس حب الاستطلاع فقط. إن لم تقيم حياتها من جديد، يكون إيمانها خداع.

بينما لا يرتبط الإيمان بالظروف، فانه في غاية الأهمية ان نرتبط إيماننا بخُلقنا. من المحتمل ان يعبر الشخص عن إيمانه بيسوع ولكن يرفض ليسوع ان يتدخل في حياته عندما يأتي أحد ليطلب طريق الإيمان، من الضروري أن يأتي بكل حياته للرب. ربما سمعت عن جنود حاربوا قبل سنوات كثيرة في جيش «مسيحي». عندما يعتمد الجنود يحتفظوا بذراعهم الأيمن خارج الماء {التعميد بالتغطيس}، وبهذه الطريقة يمكن ان يفعلوا بذراعهم الأيمن ما شاءوا في القتال، ويقولون: «هذه الذراع لم تعتمد!» كان سؤال يسوع للمرأة هو طريقة أخرى للقول بانه يجب عليها ان تعطي كل حياتها للرب أو لا تعطي شيئاً أبداً.

تم التعبير عن علاقة الطاعة بالإيمان الحقيقي في عدة أماكن من العهد الجديد. قال يسوع في إنجيل متى ٧: ٢١: «ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات. بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات». وبعد عدة سنوات كتب يعقوب: «هكذا الإيمان أيضاً إن لم يكن له أعمال ميت في ذاته» (يعقوب ٢: ١٧). الإيمان والطاعة لا يمكن انفصالهما. لم يمكن للمرأة السامرية أن تصل إلى إيمان حقيقي حتى تسمح ليسوع بكل مجالات حياتها.

ما طلبه يسوع من هذه المرأة أن تأتي بزوجها هو بمثابة انه يطلب مني ومنك اليوم ان نأتي إليه بدفتر شيكاتنا، أو بعوائد الضرائب، أوبمفكراتنا. ليس الإيمان جزء من

---

[٥] من المحتمل ان يكون بعض من أزواجها قد ماتوا. ولكن يبدو ان مفهوم النص يوضح بان كل الزيجات قدانتهت بالطلاق.

حياتنا، بل يشمل حياتنا كلها. لم يحرم يسوع المرأة من الملكوت بسبب ماضيها، ولكنه أصرّ ان تعطيه كل حياتها. طلب منها ان تنفصل عن ماضيها المليء بالخطيئة. الإيمان، إذا تم انفصاله عن الطريقة التي نحيا بها لا يكون إيماناً أبداً.

يُعبّر عن الإيمان في عبادة حقة

عندما طلب يسوع من المرأة ان تأتي بزوجها، بدى الحديث وكأنه يتخذ تحولاً كبيراً؛ ولكن كما رأينا، لم يكن الأمر هكذا. ومن ثم قالت المرأة: « آباؤنا سجدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسْجَد فيه » (٤: ٢٠). يبدو بانها أرادت الانتقال بالحديث عن حالتها الشخصية بادخال يسوع في مناظرة دينية. ولكن يسوع استخدم سؤالها ليواصل إرشادها إلى الله.

أولاً: قال لها بان العبادة الحقة غير ملزمة بإي مكان معين، بما فيه أورشليم وجبل جرزيم. عندما قال هذا لم يقصد بان جبل جرزيم جيد {للعبادة} كأورشليم، لأنه أوضح بان: « الخلاص هو من اليهود » (٤: ٢٢). وصرح قائلاً: « ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق. لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له » (٤: ٢٣).

علمها يسوع بان العبادة ليست مسألة المكان. بعد ذلك بمدة قصيرة لا يكون لأورشليم وجبل جرزيم علاقة بالعبادة الحقيقية، فالعبادة الحقيقية هي بالروح (في تباين مع الأشياء المعينة لعبادة العهد القديم وقوانينها المادية) والحق (في تباين مع رموز العهد القديم). ربما كانت المرأة السامرية بهذا السؤال مخطئة في الفهم نفسه كما كان الاثني عشر. بالنسبة لها، كان يسوع يحل العبادة من مكان معين وكان يوجهها نحو العبادة الحقيقية. العبادة الحقيقية هي روحية بسبب طبيعة الله الروحية.

حكى جون كيلينغر عن حديث جرى بينه وبين خادم متقدم في السن وكان يقترب من التقاعد. عندما سار الرجلان خلال مبنى الكنيسة العظيمة التي كان يعظ فيها الرجل المسن، سأله كيلينغر عن أفكاره اليومية في تلك الفترة من حياته. فأجاب بان من إحدى أفكاره المعتادة هي عن محبة:

> قال: « هذا ما أعنيه بالمحبة ». لوح بيده بنصف دائري، مشيراً إلى مبنى الكنيسة الواسعة جداً الذي أكتمل بناءه خلال السنوات الخمس الماضية. « كنت أظن بان الشيء الأساسي هو ان ابني هذا البناء. والآن بعد ما تم بناء ذلك، افكر كثيراً في المحبة. ما منفعة البناء إن لم يتغير الناس؟ أريد أن اقضي بقية خدمتي أُعَلّم الناس كيف يحبون. وإن لم يتعلموا ... » تضاءل كلامه بحركة إيمائية أخرى تدل على شيء من اليأس، كما لو لم يدري إذا كان يستطيع ان يضع له حداً، وكما لو كان نجاحه الباهر كالباني قد تخلل بطريقة مميتة إذ اكتشف في وقت متأخر جداً بان المحبة هي هدف كل شيء.[٦]

تلتصق مسائل كثيرة بالديانة؛ بعضها أكثر أهمية من الأخر. والمسائل الأكبر اهمية من الكل هي مسائل الإيمان والعبادة والمحبة. وجه يسوع امراة سامرية محتاجة ومرتبكة تجاه ما هو أهم في الحياة وذلك عندما وجهها للحق والعبادة الروحية. ومعظم المسائل الأخرى بما فيها الهياكل والجبال المقدسة لا تعني شيئاً عند مقارنتها بذلك.

الخلاصة

بعد حديث يسوع عن السجود والعبادة، حاولت المرأة السامرية مرة أخرى تغيير الموضوع، فقالت: « أنا أعلم أن المسيا الذي يقال له المسيح يأتي. فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء » (٤: ٢٥). وبعد ذلك فعل يسوع شيئاً مذهلا – شيئاً نادراً جداً في الأناجيل: قال لها بالضبط من كان هو! « أنا الذي أكلمك هو » (٤:٢٦). لم يكشف عن نفسه بهذه الطريقة للكهنة أو

---

[٦] مقتبس من جون كيلينغر في كتابه بعنوان: المسيح في أوقات الخدمة.

الملوك؛ بل لامرأة سامرية فاسقة! رأى يسوع في قلبها أرض خصبة لبذار الملكوت، فأعطاها رسالة الله.

أنت وأنا نقف معا أخيراً عند البئر مع يسوع. نأتي بارتباكنا ورجاءنا وماضينا وآلامنا، فقد التقينا مع ابن الله. نستمع ونحاول ان نفهم كما يعلمنا بهذه الحقائق: (١) الإيمان هو فوق الظروف، (٢) الإيمان مرتبط بالخلق، (٣) يُعَبّر عن الإيمان في عبادة حقة. كما دعى يسوع المرأة السامرية ان ترتحل بطريق الإيمان، هكذا بكل تأكيد يدعوك ويدعوني اليوم!

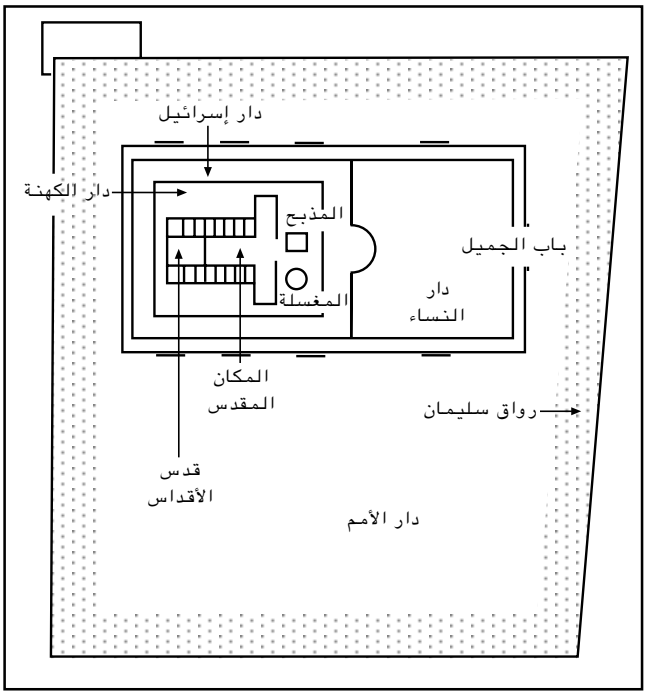

الرسم التخطيطي للهيكل

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧